

مع آية البر

تحدث القرآن الكريم عن القيم الدينية في آية جامعة ، هي آية البر ، حيث قال

تعالى :
 (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ
 الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ،
 وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ
 السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ،
 وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ
 وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (١).

(١) الآية ١٧٧ سورة البقرة .

إنها قيم ومبادئ ما استقرت في مجتمع إلا كفلت له القوة والعزة ، وحققت التكافل والتراحم بين أفرادها . وأقامت علاقته بغيره من المجتمعات على أسس العدل والتعاون والسلام .

وهذه الآية الكريمة تبدأ فتجرد البر من المفهوم الشكلي عند بعض الناس وبعض الأمم ، أولئك الذين يتعلقون في عبادتهم ومعاملاتهم بالمظاهر ، دون التعمق فيما وراء ذلك من أهداف ، وما يقوم عليه الدين في حقيقته من تكوين العقيدة السليمة وتربية السلوك القويم . ولذلك يقول الله تعالى :

(لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) .

وذلك في شأن القبلة التي يتجه إليها الناس في الصلاة ، على اختلاف دياناتهم وعقائدهم ، ولكن البر أعمق من ذلك وأبعد غاية . . إنه العقيدة الجامعة ، والسلوك الذي يترجم هذه العقيدة إلى أعمال صالحة لخير الفرد والمجتمع .

وكان اليهود عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، ينكرون على المسلمين ذلك ويقول الله على لسانهم :

(مَا وَلاَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ؟) .

فيقول الله تعالى لرسوله :

(قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ) (١)

(١) الآية ١٤٢ سورة البقرة .

أما البر فهو الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين . أن تؤمن بالله الخالق المدبر الحكيم العليم ، فترتبط بمبدع الوجود الذى خلقك فسواك فعدلك ، والذى يحيى ويميت ، ويعز ويذل ، ويرزق من يشاء بغير حساب ؛ والذى وسعت رحمته كل شىء . وهو على كل شىء قدير .

فمن يؤمن بالله يهد قلبه ، ومن يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها . ومن كفر بالله أو أشرك به فقد تنكر لفطرته ، وكان صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء ، يمزقه الصراع والضياح وإن ملك الدنيا بين يديه .

• • •

والبر أن تؤمن باليوم الآخر ، يوم الحساب والجزاء على ما قدمت فى هذه الحياة :

(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا) (١) .
(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) (٢)

(يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا) (٣)

(١) الآية ٣٠ سورة آل عمران .

(٢) الآيتان ٨٨ و٨٩ سورة الشعراء .

(٣) الآية ٤٠ سورة النبأ .

(يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (١)

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ، بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (٢)

ويقول الله - تبارك وتعالى - في شأن الحياة الدنيا والآخرة :

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ؟) (٣)

إن الإيمان باليوم الآخر هو الذي يجعل للحياة الدنيا قصداً وغاية ، وهو الذي يؤكد قانون الثواب والعقاب ، وبذلك تجرى الحياة على مبادئ مقررة ونواميس ثابتة ، تنظم حياة الإنسان ومسيرته في دنياه ، وتحدد علاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه ، وتجعله مشدوداً في ذلك إلى هدفه البعيد ، لا يعيش عبد اللحظة العابرة ، ولا يحجبه عن حقائق غده ضباب يومه ، وبذلك يسمو على واقعه ، ويتحرر من أغلال الضرورة ، ويكون مسيطراً على الحياة لا مستعبداً لها ، مؤثراً فيها بما يجمل وجه الحياة ويدفعها إلى طريق الخير والرشاد ، وينأى عن طريق الغي والظلم والفساد ، مؤمناً أن مقامه في هذه الحياة الدنيا مرحلة من مراحل حياته التي بدأها

(١) الآية ٢٤ سورة النور .

(٢) الآية ١٢ سورة الحديد .

(٣) الآية ١١٥ سورة المؤمنون .

وهو جنين في بطن أمه ، حيث كان يعيش هناك تسعة أشهر من عمره ، ينتقل بعدها إلى مرحلة أخرى في هذه الحياة الدنيا ، فمنهم من يتوفى طفلاً أو شاباً ، ومنهم من يرد إلى أرواحهم حتى يستوفى أجله المقدر على هذه الأرض ، ثم ينتقل إلى ما بعد هذه الحياة الدنيا حتى يبلغ الدار الآخرة ليجد هنالك كل ما عمل من خير أو شر محضراً ، حيث تجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون .
وفي الربط بين الحياة الدنيا والآخرة يقول الله تبارك وتعالى :

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)^(١) .

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)^(٢) .

° ° °

وتحدث آية البر عن الإيمان بالملائكة ، وهم - كما وصفهم القرآن - قوم مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .
إنهم حملة وحيه إلى أنبيائه ورسوله :

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ)^(٣) . .

وقد ينزل الملائكة في صورة بشرية يعلمون الناس دينهم .

(١) الآية ٨٣ سورة القصص .

(٢) الآية ١٩ سورة الإسراء .

(٣) الآية ٢ سورة النحل .

قال عبدالله بن عمر : حدثني أبي عمر بن الخطاب قال :
بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طع علينا رجل شديد بياض
التياب شديد سواد الشعر ، لأيرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس
إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه . وقال :
يا محمد . أخبرني عن الإسلام .

فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً
رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن
استطعت إليه سبيلاً .
قال : صدقت .

قال عمر : فعجبنا له ، يسأله ويصدقه !
قال : فأخبرني عن الإيمان .

قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره
وشره .

قال : صدقت ، أخبرني عن الإحسان .

قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

وبعد أن سأله عن الساعة وأمارتها ، قال عمر - رضي الله - ثم انطلق . . .

فلبثت ملياً ، ثم قال لي رسول الله ﷺ :

- « يا عمر ، أتدري من السائل ؟

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم .

والملائكة جند الله ينصرونهم عباده المؤمنين ، ويثبت بهم قلوب المجاهدين .

يقول الله تعالى :
(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ

الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ) (١) .

(إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ

آمَنُوا ، سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ ، فَاضْرِبُوا فَوْقَ

الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) (٢) .

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ . إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ

بثَلَاثَةِ آفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ . بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا

وَيَأْتوكُمْ مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِّنَ

الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بَشْرَى لَّكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ

قُلُوبُكُمْ بِهِ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) (٣) .

إنهم قوى يسخرها الله لنصر عباده المؤمنين ، حين يصدقون مع أنفسهم ومع

الله ، يدعونه فيستجيب لهم ، وينزل الملائكة لتقاتل في صفوفهم ، ويعدهم - مع

الصبر والتقوى - بالبشرى والطمأنينة والتثبيت والنصر المبين . . .

° ° °

(١) الآية ٩ سورة الأنفال .

(٢) الآية ١٢ سورة الأنفال .

(٣) الآيات من ١٢٣ إلى ١٢٦ سورة آل عمران .

ثم الإيمان بالكتاب والنبين . . . بالتوراة والإنجيل والقرآن ، بجميع الرسل والأنبياء ، لا نفرق بين أحد منهم . . . إنهم مصابيح الإنسانيّة اهادية على تعاقب العصور والأجيال . والإيمان بهم جميعاً مظهر من مظاهر الوحدة التي تجمع

الإنسانية على كلمة سواء .
يقول الله تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) (١) .

ذلك لأن الدين واحد في جوهره وإن اختلفت الشرائع باختلاف الأزمنة والعصور . ووحدة الدين تتمثل في الإيمان بالله ، وفيما جاء به الرسل من مبادئ عامة لحير الإنسانية جمعاء .

والقرآن الكريم حين يقول : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) (٢) .

إنما يقرر حقيقة تاريخية على السنة جميع الرسل والأنبياء منذ عهد إبراهيم الى عهد عيسى عليهما السلام .

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) (٣) .

(١) الآية ١٣ سورة الشورى .

(٢) الآية ١٩ سورة آل عمران .

(٣) الآيات ١٢٧ و ١٢٨ سورة البقرة .

(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ : يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (١) .

وقال الله تعالى على لسان سليمان : (وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنَ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ) (٢) .

وقال تعالى على لسان يوسف : (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) (٣) .

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ) (٤) .

آيات كثيرة تجمع على الإسلام جميع الرسل والأنبياء والمؤمنين بهم من أقوامهم :

-
- (١) الآية ١٣٢ سورة البقرة .
 - (٢) الآية ٤٢ سورة النمل .
 - (٣) الآية ١٠١ سورة يوسف .
 - (٤) الآية ٥٢ سورة آل عمران .

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) (١) .
 (وَمَنْ يَسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ
 بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) (٢) .

وفي الدعوة إلى وحدة العقيدة - وهي رسالة الإسلام العالمية - يقول القرآن
 الكريم :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ : الْآ
 نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ
 دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (٣) .

* * *

بقي من القيم الدينية التي تضمنتها آية البر ، والتي نعرضها في إجمال ، أن تؤدي
 حق الله فيما استخلفك فيه من مال ، ذلك أن المال مال الله ، وقد وضعه الله في
 يدك لتنفقه في مصارفه المشروعة ، تعميرًا وجهادًا في سبيل الله ، وقد نظم الإسلام
 ذلك في مبادئه وفي تطبيقاته على صورة ليس لها مثيل في ظل أى تشريع أو تنظيم
 اجتماعي آخر ، لأنه جعل مناط الأمر إلى إيمان المرء وإيثاره ، لا إلى قانون يفرض
 ورقيب يحاسب ، وهو حين فرض الزكاة بقانون جعلها الحد الأدنى للإنفاق في
 سبيل المصلحة العامة للأمة ، ولذلك حارب أبو بكر - رضى الله عنه - لأول

(١) الآية ١٢٥ سورة النساء .

(٢) الآية ٢٢ سورة لقمان .

(٣) الآية ٦٤ سورة آل عمران .

عهده بالخلافة مانعاً الزكاة من المسلمين ، وقاتلهم عليها قتال المرتدين عن الإسلام .

أما ما وراء الزكاة المفروضة من الإنفاق في مختلف وجوه البر ، فإن القرآن الكريم تضمن عديداً من الآيات في الحث على ذلك وتحبيب المؤمنين في إثبات ما يبتى من أثر العمل الصالح على ما لا يبتى من المال وعرض الحياة ، ووعدهم بمضاعفة الأجر والثواب في الدنيا والآخرة أضعافاً مضاعفة ، ومن ذلك قوله

تعالى :

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (١) .

ومن وجوه البر التي حث الإسلام على الإنفاق فيها أن تنفق من مالك ما تبره به أقربائك ، وتواسى به اليتامى والمساكين ، وتعين به ابن السبيل الذي انقطعت عنه موارده ، وتحجبه به دعوة السائل المحتاج ، وتفتدى به الأسرى ، وتحرر به الرقاب من أغلال الذل والعبودية ، تفعل ذلك مؤثراً مرضاة الله على حب المال الذي هو طبيعة في النفس . يقول الله تعالى :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) (٢) .

وأنكر الإسلام على من يجسسون المال عن مصارفه أيما إنكار ، وتوعدهم بسوء المنقلب وأشد العذاب :

(١) الآية ٢٦١ سورة البقرة .

(٢) الآية ٩٢ سورة آل عمران .

(وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ
بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ، هَذَا مَا كَتَرْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ
فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ) (١) .

ومن خصال البر كذلك إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والوفاء بالعهد ،
والصبر عند نزول الحزن ومواجهة الشدائد وفي لقاء العدو ، خصال لا يلتزمها إلا برُّ
مؤمن صادق الإيمان قوى الإرادة ، عظيم التكرم والجزاء :

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . تَعْرِفُ فِي
وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ . يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ . خِتَامُهُ
مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) (٢) .

وتحدث الرسول ﷺ عن البر فقال :

« البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه

الناس » .

وكما أن البر جمع من الخصال ما تكمل به أهلية الإنسان ، وما يكفل له
السعادة في دينه ودنياه وآخرفته ، فإن الإثم على نقيض البر في صفته وآثاره . فما من
خصلة طيبة من خصال البر يتركها الإنسان إلى نقيضها إلا كان آثماً قلبه ، مذنباً

(١) الآيتان ٣٤ و ٣٥ سورة التوبة .

(٢) الآيات من ٢٢ إلى ٢٦ سورة المطففين .

جوارحه ، منحرفاً عن الحق إلى الباطل . ومن الهدى إلى الضلال . وبذلك يهدر إنسانيته . ويذل كرامته ، ويخون أمانته ، ويصبح وبالاً على نفسه وعلى الناس . ولقد يشبهه على الإنسان أمر ، أو يزين له الشيطان وقرناء السوء اقتراف الإثم في لحظة من لحظات الضعف ، أو خضوعاً لوسائل الفتنة والإغراء ، فيختلط عليه الحق والباطل . ويقع في حيرة بين الهدى والضلال ، وتحتل أمامه الموازين والمقاييس . فماذا يفعل ليبدد ضباب الحيرة ويهتدى إلى وجه الحق والصواب ؟ . هنا يضع الرسول ﷺ في يدك مفتاح الموقف ، ويضيء لك الطريق بكلمات قصار حين يقول : « الإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » . ذلك أن الحلال بين والحرام بين ، ثم إن الذي يقع في الإثم أو يخالف قوانين المجتمع يدرك تماماً أنه مخطئ ، وهو يرتكب ذلك في غفلة عن الأعين ، متدثراً بالظلام والاستخفاء ، حريصاً على ألا يراه أحد وهو يرتكب الجريمة ويقع في الإثم .

وحسب الإنسان أن يستشعر ذلك الإحساس حين يهيم بأمر من هذه الأمور لينجو بنفسه من الوقوع فيه ، ويجنب نفسه عقاب المجتمع أو عذاب الضمير .

لماذا تؤمن بالغيب ؟

الإيمان بالغيب من القيم الدينية التي تقوم عليها العقيدة ، ويرتبط بها فكرُ الإنسان وسلوكه في هذه الحياة . بل إن الإيمان بالغيب هو أساس العقيدة الدينية ، لأنه إيمان بما جاء به الوحي الإلهي ، ونطق به الرسول الصادق المعصوم ، وأساسُ العقيدة الدينية هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

فأنت تؤمن بالله دون أن تراه .
وتؤمن بالملائكة وهم خلق غير مرئي .
وتؤمن بالرسول عن طريق ما يذكره القرآن الكريم من أنباء الغيب .
وتؤمن بالكتب المقدسة وحيًا من عند الله لهداية البشر .
وتؤمن باليوم الآخر ، حيث البعث والنشور ، وحيث الجزاء الحق على ما قدمت في هذه الحياة .

والإيمان بالغيب كان - وما يزال - أصلاً من أصول الفطرة الإنسانية منذ درج الإنسان في مهد الوجود ، حتى بلغ ما بلغه من تجارب العلم والكشف عن بعض مجاهل الكون والحياة .

فقد كان الإيمان بالغيب في مدارج الإنسانية الأولى نابعاً من التركيب الفطري للملكات الإنسان وغرائزه في تطلعه إلى ما وراء المظاهر المادية من أسرار ، وما وراء الظواهر الكونية من غيوب . توجهه في هذا التطلع رسالاتُ السماء ، بما تقص عليه من أنباء الغيب ، وما تثير في نفسه من أشواق التفكير في ملكوت السموات والأرض ، فلما قطع العقل البشري أشواطاً في تصور حقائق الكون والحياة ، وكشفت له التجارب العلمية آفاقاً كثيرة كانت من الغيب المحجوب ، اكتسبت عقيدة الإيمان بالغيب مصادر أخرى غير مصدر الملكات والغرائز والوحي الإلهي ، هي مصادر العلم التجريبي بما وصل إليه من كشف في مجال النفس البشرية ومجالات الكون والحياة ، ومعرفة الحدود التي تقوم عليها الصلة بين الإنسان وما يحيط به من عوالم الحس ومناطق الغيب في الزمان والمكان .

على أن البشرية لم تخل في مختلف العصور وعلى تعاقب الأجيال من أناس ينكرون الغيب ولا يؤمنون إلا بما تقع عليه الحواس . كان كذلك بنو إسرائيل الذين أظلمت قلوبهم وسيطرت المادة على حياتهم وتفكيرهم ، وبلغ بهم الأمر في شأن العقيدة الدينية أن قالوا لنبيهم موسى :

(لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً !) (١) .

وإذا جازت هذه « المادية » الغليظة في العصور الغابرة التي كان الفكر الإنساني يقصرُ خلالها عن تصور الحقائق الدينية العليا ، ولا يستطيع في حركته وتصوراتهِ أن

(١) الآية ٥٥ سورة البقرة .

يتحرر من قيود الحواس وأغلال المادة ، أو في عصور « المراهقة » العقلية التي كان الفكر الإنساني مفتوناً خلالها بما كشفت عنه تجاربه الأولى من حقائق علمية تختلف أو تتناقض مع ماورثه من تصورات دينية وتفسيرات للظواهر الكونية كانت مثار خلاف عنيف في أوروبا بين رجال الكنيسة وعلماء الفلك والطبيعة .

إذا جازت هذه « المادية » في تلك العصور ، فإن الأمر في عصرنا هذا ، عصر الفتوحات العلمية والكشوف الكونية يختلف عن ذلك أشد الاختلاف ، بعد أن صار الإيمان بالغيب من القيم العلمية ، وصار العلم دليلاً يؤيد وجود عالم الغيب ، أو على الأقل لا ينكر وجود هذا العالم المحجوب ، وأصبحت هذه العقيدة مُنطَلَقاً إلى كشف حجه وارتباد مجاهله ، في تواضع يقف بالإنسان وقدراته ووسائله العلمية المتاحة عند الحدود التي لا يستطيع أن ينكر ماوراءها من الغيب المحجوب ، لمجرد أنه لا يقع تحت حواسه أو لا تبلغه قدراته ووسائله العلمية المتاحة ، ذلك لأن عدم « وجدان » شيء لا ينفي وجوده .. إذا احتكنا إلى منطق العقل ومنطق العلم الذي يكشف كل يوم شيئاً جديداً في عالم الغيب المحجوب . وما زالت أمامه أسواط بعيدة وآفاق واسعة يحاول أن يجد لديها تفسيراً لكثير من أسرار الحياة والوجود .

إن الحواس الخمس المعروفة ، وهي اللمس والنظر والشم والسمع والذوق ، لم تعد وحدها هي الحواس التي تعكس للإنسان حقيقة ما حوله من الأشياء ، فقد عرف العلم الحديث حواس أخرى منها ما يسمى بالحاسة السادسة ، كما أثبت وجود ملكات نفسية تتجاوز آفاق الحواس المعروفة ، وتحطم الحواجز التي كانت تقف عندها هذه الحواس ، والتي كانت تبرر الزعم بأنه ليس وراء عالم الشهادة إلا عدم المطلق والتصور الخرافي العقيم .

ومع ذلك فلنقف قليلاً عند هذه الحواس .. لنناقش في ضوء ما كشفه العلم

قيمة هذه الحواس في التعرف على حقيقة « الماديات » التي تقع تحت إدراكها ونضرب مثلاً لذلك بالأذن ...

هل نستطيع أن نقول إن كل مالا تسمعه الأذن - وهي الأداة الوحيدة للسمع - يعتبر غير موجود؟

الجواب عن ذلك بمنطق العلم الحديث : لا . إن هناك من الأصوات « الموجودة » مالا تسمعه الأذن ، وهنا يسقط منطق من لا يؤمن بالغيب المحجوب عن سمعه اعتماداً على أن أذنه لا تسمع هذا الغيب « المزعوم » . ذلك لأن الأذن لها حساسية خاصة للأصوات التي تقع تردداتها فيما بين ألف وثلاثة آلاف ذبذبة في الثانية . وإذن فهي لا تسمع الموجات الصوتية التي يطلق عليها « تحت السمعيات » ولا الموجات الصوتية التي يطلق عليها « فوق السمعيات » . ويعتبر عدم حساسية الأذن البشرية للاهتزازات ذات الترددات المنخفضة من النعم العظيمة التي يتمتع بها الإنسان ، فهي تحول دون سماعه لضربات قلبه ، ولولا ذلك لكان لضربات القلب ضجيج لا ينقطع ^(١) !

فإذا تعنى هذه الحقيقة التي كشف عنها العلم الحديث ؟
تعنى أن في الوجود تموجات صوتية لا تسمعها الأذن بتركيبها « العادي » وأن ذلك لا يمنع أن يسمع إنسان « ما » أصواتاً لا يسمعها غيره ، إذا اختلفت حساسية أذنه ، أو قدرتها على استقبال هذه الأصوات .
ومالنا نذهب بعيداً ، وأمامنا الأمثلة « المادية » التي حققها العلم في هذا المجال ، والتي تؤكد النظرية وتقرب الصورة للأذهان ؟

(١) كتاب « أصوات لا تسمع » تأليف ب . قدريا فستف . ترجمة الدكتور سيد رمضان

إن « الراديو » يردد الأصوات البعيدة المرسله من أقصى الأرض عندما تحرك موشره نحو محطة من محطات الإرسال هناك . وإن « التلفزيون » ينقل إليك الصوت والصورة ، فهو يجمع بين عمل حاستين من الحواس : الأذن والعين ، على بُعد مصدر الصوت والصورة آلاف الأميال .

فهل بعد هذا نستطيع أن ننكر ، وباسم العلم ، وجود الصوت والصورة في عالم الغيب ، نجرد أن الأذن لاتسمع هذا الصوت ، وأن العين لاترى هذه الصورة في عالم الشهادة ، عالم المادة المحسوسة بالآذان والعيون ؟
وقل مثل ذلك عن غيرهما من الحواس .

وهناك أمثلة كثيرة على حدوث « التَلَقَّى » في عالم الغيب ، كسماع الأصوات الصادرة من بُعد بعيد ، ورؤية الصور التي تحجبها المسافات الطويلة ، وغير ذلك من القدرات الخاصة في الاتصال بعالم الغيب المحجوب عن الحواس .
أمثلة كثيرة كانت موضع الإنكار من قبل ، وكان البعض يعتبرها من الظنون والأوهام ولكنها اليوم أصبحت موضع التصديق ، لأنها أصبحت في حكم اليقين .

ونقف وقفة متأنية أمام عبارة سابقة تقول :
« إن عدم حساسية الأذن البشرية للاهتزازات ذات الترددات المنخفضة ، من النعم العظيمة التي يتمتع بها الإنسان ، فهي تحولُ دون سماعه لضربات قلبه ، ولولا ذلك لكان لضربات القلب ضجيج لا ينقطع » .

فماذا تعنى هذه العبارة مرة أخرى ؟

مأيسر ، وما أخطر الجواب !

إنها تقدم للإنسان « حقيقة » مادية تجبهُ (١) بها غروره وتطلَّعه إلى مالا يطبق

(١) تفاجئ ، تصدم .

من العلم . العلم اللانهائى للكون والحياة ، علم الغيب المخجوب عن الأسماع والأبصار وغيرها من ملكات النفس وسائر الحواس .

فلو قد كُشِفَ له كل ما فى الكون من غيوب لَصُعِقَ !

بل إنه ليصعق حين يُكشِفُ له أدنى قدر من هذه الغيوب لاطاقة لحواسه وملكاته على استقباله . وهذا هو المثل الذى تتوارد معه آلاف الأمثلة ، تقدمه الحقيقة العلمية عن الأذن البشرية .

هى إذن نعمة كبرى يتمتع بها الإنسان ، حين يلتزم حدوده التى أحاطته بها العناية الإلهية ، وليست « نقيصة » فيه يحاول التمرد عليها بالكفر والإنكار . وإنما اختص الله وحده بعلم الغيب ، لأنه الحقيقة الكبرى المحيطة بكل ما فى الوجود .

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ) (١) .

وحتى هؤلاء الرسل لهم طاقة محدودة للاستقبال ، ومحيط معين للمشاهد الغيبية ، إن بدا لأحدهم أن يتجاوزه صعق !

وهذا ما حدث لموسى عليه السلام ، حين جاء لميقات ربه وكلمه الله .

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنُ تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ

(١) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ سورة الجن .

إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١) .

هذا عن الحواس المعروفة ومداهها المحدود في إدراك حقائق الوجود ، وعن الملكات النفسية في إمكان تجاوزها حدود الزمان والمكان .

فإذا عن « المادة » التي يتكون منها عالم الشهادة ، والتي لا يؤمن البعض إلا بها ويكفرون بما وراءها من غيوب ؟

هذه المادة التي تبدو في صورتها الصلبة أو السائلة ، الحية أو الجامدة ، المضيئة أو المظلمة .. ليست في حقيقتها العلمية إلا « طاقة » تشكل وفقاً لقوانين معينة في التركيب والسرعة تعطى كل كائن شكله المادي .

هذه المادة التي تتكون منها جميع المحسوسات ... الأرض وما عليها من جبال ومحيطات وأنهار ، وما في باطنها من معادن ، وما يعمرها من إنسان وحيوان ونبات ، وما أنتجته جهود البشر من عمارة وصناعات . ثم هذه الأجرام السماوية وما فيها من شمس وأقمار ومذنبات ونجوم .

ماذا بقي إذن مما يقال إنه عالم « المادة » أو عالم الواقع المحسوس ؟

بقي ما وراء هذه المادة ، أو على الأصح ما وراء هذه الطاقة .

بقي الغيب المحجوب الذي يقف العلم على شاطئه وهو حائر مشدوه . إنه يستطيع أن يحلل ويعلل الظواهر ، ولكنه عاجز كل العجز عن إدراك ما وراء هذه الظواهر من حقائق تتحدى العقول .

وهذا « آينشتين » أعلم علماء الأرض في الكون وظواهره ، يتحدث في تواضع

العلماء عن شعوره أمام هذه الغيوب فيقول :

« إن أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها ، تلك التي تستشعرها النفس

(١) الآية ١٤٣ سورة الأعراف .

عند الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني .. إن الذي لا يتجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته ، حتى كَمَيْت .. إنه خفاء لا نستطيع أن نشق حجه ، وإظلام لا نستطيع أن نُطلع فجره ، ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة .. أحكم ماتكون ، ونحس أن وراءه شيئاً هو الجمال .. أجمل ما يكون وهي حكمة . لا نستطيع أن تدركها عقولنا القاصرة إلا في صور بدائية أولية ، وهذا الإدراك للحكمة . وهذا الإحساس بالجمال في روعة ، هو جوهر التعبد عند الخلائق « (١) » .

ويقول ا. كريسي موريسون ، الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك : « إن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم ، لتدعُ مجالاً للاعتقاد بوجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة . وهذا ضوء يُلْقى على الخفاء الواسع الذي يحيط الآن بما هو غير معروف لنا ظاهرياً ، وقد يقودنا هذا الضوء إلى الاعتراف بوجود عقل عام أسمى ، أي إلى وجود الخالق » .

ثم يعود فيقول :

« إن وجود الخالق ، تدل عليه تنظيمات لانهاية لها ، تكون الحياة بدونها مستحيلة . وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض ، والمظاهر الفاخرة لذكائه ، إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارئ الكون .. وإني لأورد قول « أوسبورن » في هذا المجال : « بين جميع الأشياء التي لا يمكن إدراكها في الكون ، يقف الإنسان في الطبيعة ، وبين الأشياء التي لا يمكن إدراكها في الإنسان ، تركز الصعوبة الكبرى فيما له من مخ ، وذكاء ، وذاكرة وآمال ، وقوة كشف وبحث ، وقدرة على تدليل العقبات » (٢) .

(١) كتاب « مع الله في السماء » تأليف الدكتور أحمد زكي .

(٢) كتاب « العلم يدعو إلى الإيمان » ترجمة محمود صالح الفلكي .

وبعد ، فهل مؤدى ذلك أن يقف الإنسان عاجزاً معضلاً أمام الغيب المحجوب في الكون والحياة ؟ . . .

كلا .. بل إن الأمر على العكس ..

إن الإيمان بالغيب هو مصدرُ النشاط العلمي للكشف عن كل مجهول ، وإلا عطل الإنسان مواهبه وملكاته ، وتوقف العلم عن تجاربه ومحاولاته التي تكشف له كل يوم عن جديد في الكون والحياة .

يقول آينشتين :

« إن الشعور الديني الذي يستشعره الباحث في الكون ، هو أقوى حافز على البحث العلمي ، وأنبيل حافز»^(١) .

وفي الربط بين الدين والعلم يقول القرآن الكريم :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)^(٢) .

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ

فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)^(٣) .

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ

أَفَلَا تَبْصُرُونَ)^(٤) .

(١) كتاب « مع الله في السماء » .

(٢) الآية ٢٨ سورة فاطر .

(٣) الآية ١٩١ سورة آل عمران .

(٤) الآيتان ٢٠ و ٢١ سورة الذاريات .

(أُولَٰمَ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ
مِنْ شَيْءٍ) (١) .

(سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ
الْحَقُّ) (٢) .

... وآيات أخرى كثيرة نحث على التفكير في ملكوت السموات والأرض ،
وتثير في العقل البشري أشواقه إلى المعرفة ، وتدفع بالعلم لاستجلاء حقائق
الوجود ، وتنعي على الذين عطلوا مواهبهم وملكاتهم وحواسهم ، تجردهم بذلك
من مميزات الإنسانية وهبوطهم إلى مستوى البهائم .
وفي ذلك يقول الله تعالى :

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ
لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ
لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْغَافِلُونَ) (٣) .

وهذه الغفلة عن الحقائق الكبرى ، وأولها الإيمان بالغيب ، وهو أساس الإيمان
بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وافتتان الإنسان بظواهر الطبيعة وإنكار
البعث لما وراء هذه الظواهر في نفسه وفي الكون ، هو الذي أوقع الإنسان في

(١) الآية ١٨٥ سورة الأعراف

(٢) الآية ٥٣ سورة فصلت .

(٣) الآية ١٧٩ سورة الأعراف .

مهاوى الحيرة والتخبط وأبعده عن فطرته السليمة ، وأضله عن حقائق وجوده وصلته بالكون والحياة .

وهكذا لا يكون أمام الإنسانية لكي تبلغ غايتها في ألفة عميقة مع الكون والحياة وفي توازن بين حقائق وجود الإنسان في عالم الشهادة وعالم الغيب ، إلا بأن يكون الإنسان صادقاً مع قوانين فطرته ، هذه الفطرة التي تؤمن بالغيب حقيقة دينية وعلمية ، ترتفع بالإنسان عن « واقعه » المادى الذى يهدر إنسانيته ويقعد به عن الانطلاق إلى أهدافه البعيدة لتطوير هذا الواقع وترقيته إلى المستوى الذى يليق بمكانة الإنسان وكرامته فى الحياة ، وتحفز قدراته وأشواقه للكشف عن المجهول واستجلاء عالم الغيب . وهل يتجه الإنسان بعقله وعلمه إلى هذه الأهداف البعيدة إلا إذا كان مؤمناً بأن وراء هذه الظواهر الكونية حقائق خالدة ؟

وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟

وإن من الحقائق الواضحة في مجال النشاط العلمي الحديث ، أنه قطع أشواطاً واسعة في علوم الطبيعة ، وحقق انتصارات كبيرة في عوالم الذرة والفضاء ، واستطاع أن يُجرى تجارب في زراعة أعضاء الجسم وأهمها زراعة القلب . ولكن هذا النشاط العلمي الرائع في مجال الطبيعة الكونية والتشريحية ، يقابله قصور واضح في ميدان آخر لا يقل أهمية إن لم يزد عن غيره من الميادين . ذلك هو ميدان الإنسان نفسه ، لامن حيث تركيبه البيولوجي أو الفسيولوجي ، ولكن ما وراء ذلك من أعماق « غيبية » تكمن فيها أسراراً لاحتد لها ، وبدون الوصول إلى هذه الأعماق يبقى كثير من الظواهر البيولوجية والفسيولوجية نفسها ألغازاً غامضة تثير عديداً من الأسئلة التي لا تنتظر بجواب .

يقول الكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل في الطب والجراحة ، والعالم

لمتخصص في بحوث الخلية وتقل الدم والأعضاء :

« من الواضح أن جميع ماحققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان غير كاف ، وأن معرفتنا بأنفسنا مازالت في الغالب معرفة بدائية . والواقع أن جهلنا مطبق ، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنة غير معروفة » (١) .

ولنأخذ مثلاً نبدأ به مناقشة هذا الموضوع .

هذه « النطفة » التي تحتوي على جرثومة الحياة نقطة « البروتوبلازم » التي لا تكاد تُرى والتي تتكون منها خلية الأجسام الحيوانية والنباتية ... إن هذه النطفة الحية يتضاعف تكوينها الداخلي ، ولها القدرة على الانقسام والتعدد أضعافاً مضاعفة إلى ملايين الملايين ، ومنها تتكون خلايا الكائن الحي من الإنسان والحيوان والنبات . فكيف يتم هذا « التنوع » مع وحدة التكوين ، فنصير هذه الخلايا إنساناً ، وتصير تلك الخلايا غزالاً ، أو نصير مجموعة من الخلايا شجرة برتقال ؟

وهذه الخلايا التي يتكون منها جسم الانسان ، كيف يتحول بعضها إلى أذنين ، والبعض الآخر إلى قلب أو رئة أو لسان ؟
أسئلة لا يجد لها العلم حتى الآن أي جواب .

ولكنها تؤكد في الوقت نفسه « حقيقة » لا تقبل الإنكار ، هي أن وراء هذه الحركة البيولوجية تديراً محكماً أعطى هذه « النطفة » خصائص التكاث والتشكل في دقة معجزة . وقصد عجيب .

(١) كتاب « الإنسان ذلك المجهول » تأليف الكسيس كاريل ترجمة شفيق أسعد فريد .

ولقد وصل العلم إلى أبعد من هذه الأعماق في تكوين الإنسان وغيره من الكائنات الحية . فهذه « الخلية » تحتوى على عناصر عجيبة هي : الكروموزومات ، والجينات . والسبتوبلازم . والجينات هي وحدات الوراثة التي تحمل الخصائص الفردية وأحوالها النفسية وألوانها وأجناسها لجميع المخلوقات البشرية على ظهر الأرض جيلا بعد جيل . ولجميع الكائنات الحية من نبات وحيوان ...

فن الذى أودع الخلية هذه « الجينات » التى تحفظ لكل كائن حتى خصائصه الوراثة على تعاقب القرون والأجيال ؟ ..

سؤال آخر لا يملك له العلم جواباً حتى الآن . ولكنه يؤكد كذلك « حقيقة » لا تقبل الإنكار ، هى أن وراء هذا التكوين العجيب للخلية الحية تدبيراً محكماً أعطى هذه « الجينات » القدرة على حمل الخصائص الوراثة لكل كائن فى هذه الحياة .

جواب واحد على هذا السؤال وغيره من الأسئلة بيدد الحيرة ، ويلتقى عنده العلماء والذين يؤمنون بالغيب :

(قَالَ : رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (١) .

وهذه الآفاق الواسعة ذات الأعماق البعيدة للنفس البشرية ، فى قدرتها على الإحساس والإلهام والكشف والاتصال والأحلام التى تتحقق مثل فلق الصبح . وهذه الموجات المغنطيسية التى يستقبلها المخ حين يكون مركزاً على نحو ما ، فيتم عن طريقها انتقال الصورة أو الكلمة بين شخص وآخر .

(١) الآية ٥٠ سورة طه .

إنها ظواهر من عوالم النفس الإنسانية ، تضاف إلى غيرها من عجائب تكوين الإنسان . وكلها تردد أصداء قوله تعالى :

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟) (١) .

* * *

ولكن ما الذى انحرف بالعلم عن البحث فى الجانب النفسى والباطنى للإنسان ، بالمقدر الذى اتجهت إليه الجهود للبحث عن الجوانب المادية فى الحياة ؟ . إن هذا الاتجاه الذى أخلَّ بالتوازن العلمى فى تقييم الحياة الإنسانية جاء نتيجة للنظريات التى اعتبرت الإنسان آلة جسدية قوامها المطالب المادية فحسب ، ومن ثمَّ فليست حياة الإنسان بما فيها من مُدْرَكَاتٍ معنوية إلا انعكاساً لهذه الحياة المادية !

ولا جدال فى أن للإنسان جانبه المادى ، ولكنه ليس الجانب الوحيد فى حياة الإنسان ، لأن وراءه « الطاقة » ذات الخصائص الروحية ، التى يعتبر هذا الهيكل المادى مظهرها لها . كما أثبت العلم فى كشوفه التحليلية للمادة ، التى وقف العلم عاجزاً مبهوراً أمام ما وراءها من أعماق وغيوب .

على أن العلم لم ينصرف كلياً عن محاولاته وتجاربه فى مجال الروح الإنسانى ، والكشف عن أعماق النفس البشرية ، حتى فى الفترات التى طغت فيها الفلسفة المادية على العقول ، وكادت تكون السمة الغالبة للعلم والعلماء .

ومع تقدم العلم الحديث وما أحرزه من انتصارات بعد الوصول إلى أعماق الذرة ، وجد العلماء أنفسهم وجهاً لوجه أمام الحقائق « الروحية » التى قد لا يؤمن

(١) الآية ٢١ سورة الذاريات .

بها البعض ولكنهم في الوقت نفسه لا يستطيعون إنكارها ، وَتَحَطَّم صَنَمُ « المادّة »
الذى كان إلى عهد غير بعيد معبود العلم والعلماء .

وبدأت صفحة جديدة في تاريخ العلم سجل فيها العلماء كثيراً من الحقائق
« الغيبية » التي أدت إليها الكشوف العلمية أو النتائج العقلية المبنية على التفكير
العلمي . وأهمُّ هذه الحقائق ما يتصل بالجانب الروحي في الإنسان وصننه بالكون
والحياة .

قال آينشتين : « إن الإنسان الذي لم يختبر وقفةً من وقفات الصوفية خيال ذلك
العالم . ولم يشعر نحوه بالروحانية ، هو حتى حكمه حكم الميت . ولبُّ الديانة عندي
أن الذي لا ننفذ إليه بمداركنا هو موجود حقاً متجلاً حقاً ، يطالعنا بالحكمة العليا
واجبال الرائع . ولا تحيط عقولنا الكليلة منه إلا بأشكال بدائية كالظلال » .
وقال راسل والاس : « إن الكون المادى ليس إلا مظهرًا للكون الروحاني ،
وإن في الكون الروحاني أنماطًا من العوامل الفعالة من القوى العليا إلى الأرواح
الكائنة في الخلايا الحية » .

وقال ا . كريسي موريسون : « إن التطور الروحي للإنسان هو الآن في
الهداية . وانقبسُ الإلهي قد بدأ يسيطر في بطنه على عقله المادى . ونحن إذا فكرنا في
القضاء الذي لا يفتأ يمتد أمامنا ، وفي الزمن الذي لا بداية له ولا نهاية ، وفي الطاقة
المحبوسة في الذرة ، والجاذبية وسيطرة القوانين الطبيعية على العالم ، إذا فكرنا في
ذلك أدركنا أننا لانعرف في الحق إلا القليل » (١) .

(١) كتاب « العلم يدعو للإيمان » ترجمة محمود صالح الفلكي .